

قراءة في الواقع الثقافي الاجتماعي للطرق الصوفية ودورها في حركة التواصل

د . صالح معيوف مفتاح
جامعة سبها

على الرغم من أن التصوف من الناحية الوجدانية هو حالة فردانية ، يعيشها المتصوف أو السالك لطريق أصل الحقيقة ، من خلال امتثاله لجملة من الآداب الصوفية، ولكن لا يعني هذا أن ليس للصوفية منهج للمعرفة والتربية ، بل هذه الحقيقة تؤكدها تعدد الطرق الصوفية ومدارسها ومناهجها ، لتصل إلى هدف سامي واحد : القرب من الله ومعرفته ، ولذلك يسمي رجال التصوف الشخص الذي سلك ووصل « بالعارف بالله» ، ومعرفة الله تعني الالتزام بشرعه من خلال القرآن والسنة النبوية الشريفة ، والإكثار من العبادات ومكابدة النفس والهوى عن كل ما يشغل عن طاعة الله والاستقامة في طريقه .

ويجدر بنا أن نسأل طالما المنبع الذي يستقي منه الصوفية منهجهم هو واحد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم : لماذا هذا التعدد في التسميات الذي نلاحظه في الطرق الصوفية؟ .

لا شك أننا لا نستطيع أن نجيب الإجابة الكاملة حول هذا السؤال ، رغم أهميته ، وليس مرجع ذلك لعدم توفر الإجابة بل لتعدد الإجابة ، وإطالتها التي لا يمكن أن نفيها حقها في هذه الورقة المحددة بزمن معين ، ولكن كما يقال الذي لا ينال جله لا يترك كله ، لذلك نحاول ، وبالله التوفيق ، معالجة هذا السؤال وفق ما يسعفنا الوقت والذاكرة ،

حيث تعد هذه الإجابة وجهة نظر شخصية للباحث ، استقاها من خلال تتبعه المتواضع للمدارس الصوفية وبعض رجالها ، والمجاهدات التي عاشوها في سبيل الوصول إلى المعرفة الحقة ، امتثالاً للحديث الشريف « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فهو يراك » .

والمتصوف هو بحاجة لهذه الرؤية التي يريد أن يصل إليها بالمجاهدة ومغالبة النفس والهوى ، من خلال زيادة جرعة العبادات من نوافل وتسبيح وذكر مستمر لله ، وفضائل الأعمال من بدل المعروف ومحبة الناس وتطهير النفس من أدرانها ، مصداقاً للحديث القدسي « ما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها » أي هدف الصوفي التجرد من كل ما هو مادي يشغله عن الله ، وهذا الأمر يحتاج إلى مجاهدات تختلف حسب طاقات البشر، ولذلك تتباين هذه المجاهدات والوسائل من شخص إلى آخر ، ليصبح لكل شخص منهج أو طريقة يصل من خلاله ، ومن هذا التعدد والتنوع في الطرق الصوفية التي في الغالب الأعم تنسب إلى اشخاص بذاتهم ، قاموا بهذه المجاهدات وأرادوا تربية مريديهم على ذلك إذاً هذا التعدد سببه اختلاف المنهج والوسائل ، ولكن الهدف يبقى دائماً واحداً ، وهو معرفة الحقيقة التي هي معرفة الله ولتبسيط هذه المعالجة وفق منهجية واضحة لموضوع هذه الورقة ارتأيت تقسيم موضوعها إلى العناوين التالية :

*تعريف التصوف وتحليل الآراء التي قيلت فيه .

*أهم الطرق الصوفية ودورها في أفريقيا .

*دراسة المنهج والأهداف ومدى التزام هذه الطرق والزوايا بمفهوم التصوف .

*مظاهر الأدلجة أو التسيس التي اكتست أعمال بعض الطرق الصوفية بها وتحولها إلى حركات إصلاحية سياسية .

ونجد أن بعض الطرق التزمت المعنى الحقيقي للتصوف وفق ما تدعو إليه مناهج التصوف .

كما نتناول في إشارة سريعة حركات التبشير المسيحي التي تعرضت لها القارة وشكلت تحدياً للوجود الإسلامي واللغة العربية في القارة ، والوسائل التي اتبعها المبشرون في ترسيخ أهدافهم .

أولاً : التصوف

ــ تعريفات عامة للتصوف .
ــ ماهية التصوف ودرجاته ومقاماته .
ــ ما هي غاية المتصوف ؟ وما هو منهجه لبلوغ هذه الغاية دراسة بعض المصطلحات الصوفية .
ــ الحالة المعرفية التي يريد أن يصل إليها المتصوف حتى يسمى عارفاً .
ــ الجانب التربوي للتصوف ، وما المقصود بالتربية عند الصوفية؟ أي ما هو المستهدف في التربية والرياضات التي يقوم بها المتصوف لبلوغ المعرفة .

إنّ موضوع التصوف شائك ومتشابك في أحيان كثيرة ، ومشحون بجملة من الآراء الأفكار والتي ربما في حقيقتها ، خارجة عن موضوع التصوف الحقيقي ، ولذلك فإن موضوع التصوف مجاله واسع وثري بالأفكار التي لا يمكن الإحاطة بها في لقاء واحد أو محاضرة واحدة ، كما أنّه لا يعرف حقيقة التصوف إلاّ من عاش هذا السلوك لأن التصوف في حقيقته « حالة فردانية » تُعرف من خلال المجاهدة والرياضات ، وحقيقةً هذه صفة لا أدعيها ، ولكن يمكن أن أدلي فيها بدلو أتمنى أن يكون هذا الدلو شربه ري ، يطفئ ظمأ السامع ولو قليلاً ، حول تعطشه لمعرفة هذا الموضوع .

تحمل كلمة التصوف بين طياتها عالماً فريداً من الرؤى النورانية الشفافة ، كما تشير إلى نمط من الفكر والسلوك يتميز بخصوصية شديدة . وإذا كانت الحياة الصوفية تعكس أعمق وجهات النظر تجاه الوجود الدينوي ، فإنها تمثل أيضاً أعلى مظاهر التقوى الدينية النابعة من صدق الرابطة بين الإنسان وخالقه [1] .

والمفهوم الحقيقي للتصوف هو « الإسلام بذوق » فرغم التعريفات المتعددة التي يحشرها مؤرخو الصوفية كالسلمي والكلابادي والقشيري في محاولة لتحديد مفهوم عام للتصوف ، فالتصوف من حيث المنطق « مشتق من الصفاء » وهو من حيث السلوك « كله خلق فمن زاد في الخلق زاد في الصفاء » وهو من حيث الزهد في متاع الدنيا « مأخوذ من لبس الصوف والخشن من الثياب » وهو من حيث المراحل والعتبات

(1) أحمد النقشبندي الخالدي ، الأولياء وأوصافهم ، ط1 ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت1997 .

« شريعة وطريقة وحقيقة » (1) .

وهذا المفهوم العام للتصوف باعتباره « الإسلام بذوق » يعني عدة أمور أولها أنه لا شيء في التصوف يخرج عن سياج الشريعة الإسلامية ، وأنه لا يسع الصوفي مهما كانت مرتبته الروحية أن يسقط قاعدة شرعية ، وإلاّ صار زنديقاً ، وأنه لا يمكن أن تتعارض الحقائق الصوفية مع صريح الكتاب والسنة . . فإذا ما تسامت الحقيقة الذوقية ولم يدرك الفرد أصلاً شرعياً لها ، فإن الواجب هنا التوقف حتى يلوح الأصل الشرعي لفهمه ، وإلاّ استغنى عما لا يفهمه (2) .

وعلى الرغم من هذا المدلول الحقيقي العام للتصوف ، فإننا لا نجد مناصاً من أن نورد بعض التعريفات وأصل التسمية .

تعريفات عامة للتصوف

القول بكون التصوف مشتقاً من الصوف ، الذي كان رداء الأنبياء والزهاد يدلّ على التقشف . وكونه مشتقاً من الصف ، لما يؤدي إليه من صفاء النفس عن كدر المحسوسات ويؤهلها للترقي في طريق الأحوال والمقامات . وفي قول آخر أنه مشتق من الكلمة اليونانية « سوفيا » وتعني الحكمة باعتبار الصوفية هم الحكماء الإلهيون ، الذين جمعوا بين العلم الظاهر والمعرفة اللدنية .

ومن يرجع هذه التسمية إلى أهل الصُّفة ، وهم جماعة من فقراء الصحابة انقطعوا للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة ، وكان النبي ﷺ لا ينكر عليهم ذلك (3) ويورد ابن عجيبة في كتابه « معراج التشوف إلى حقائق التصوف » هذا التعريف الجامع للتصوف فيقول « التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل أو غيبة الخلق في شهود الحق » (4) .

---

(1) أحمد بن عطاء الله السكندري ، التحفة في التصوف .

(2) أحمد بن محمد بن عجيبة الحسين ، معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، مكتبة أم القرى ، القاهرة2002م .

(3) أحمد بن محمد بن عياد الشادلي ، المفاخر العلية في المآثر الشادلية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، 1992م .

(4) أحمد بن محمد بن عيسى المغربي ، قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ، مكتبة النجاح ، طرابلس .

وقال سهل بن عبدالله التستري المتوفي (**283هـ**) «الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر ، أي لا رغبة له في شيء دون مولاه» [1] . وقال أبو القاسم الجنيد المتوفى سنة (**297هـ**) الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منه إلا كل مليح ، وقال أيضاً : الصوفي كالأرض يطأها البر والفاجر [2] .

ماهية التصوف

ماهية التصوف هي مجاهدة النفس ومغالبتها ليصل إلى سبيل الله ومن ثم معرفة الله ، أي معرفة الحقيقة ، وبذلك يقال للمتصوف الذي وصل إلى هذه الدرجة ، وهي درجة التحقيق «العارف بالله ومجاهدته تأتي تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [3] .

ويشير الإمام عبدالقادر الجيلاني إلى المراتب التي يقطعها الصوفي في سيره إلى الله ، فأولها مكابدة النفس والهوى والشيطان ، ثم التعبد وتصفية الباطن ، ثم الخروج عن زخرف الأكوان والتجوهر لرب الأنام والرضا بقضائه [4] .

ومن مقامات الصوفية التوبة ، وفي ذلك يقول ابن عجيبة : هي الرجوع عن كل فعل قبيح إلى كل فعل مليح ، فتوبة العامة من الذنوب ، والخاصة من العيوب ، وتوبة خاصة الخاصة عن كل ما يشغل السر عن حضرة علام الغيوب [5] والتوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وعدم الإصرار بالجنان ومهاجرة سيء الخُلّان ، والإنابة ، وهي أخص من التوبة لأنها رجوع يصحبه انكسار ونهوض إلى السير ، وهي ثلاث مراتب : رجوع من الذنب إلى التوبة ، ومن الغفلة إلى

(1) السهروردي ، عوارف المعارف ، مكتبة القاهرة ، 1973م .
(2) جلال الدين السيبوطي ، تنوير الملك في جواز رؤية النبي والملك ، دار جوامع الكلم ، القاهرة ، ب ت .
(3) سورة العنكبوت الآية 69 .
(4) جوزيف شاخت وكليفورد بوزورت ، تراث الإسلام جـ 2 ، ط 3 «عالم المعرفة» العدد 234 ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ، يونيو1998 .
(5) عبدالله عبدالرزاق إبراهيم ، الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 . 2004 .

اليقظة ، ومن الفرق إلى الجمع على الله (1) .

وهذه المقامات متعددة عند الصوفية ، وقد أخذوها من الآيات القرآنية ، وهي تعني المقام أو الحال بمعنى الموضع والمنزلة ، والآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ مقام هي قوله تعالى : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (2) ، وقوله جل من قائل : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (3) ، وقوله جل ذكره : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (4) ، وقوله في محكم التنزيل : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (5) .

والمقامات عند الصوفية عديدة ، منها التوكل والصبر والشكر والرضا ، وقد اختلف الصوفية في عدد هذه المقامات ، منهم من يجعلها سبع مقامات مثل السراج ، وأما يزيد المكي والغزالي فيجعلانها تسعاً ، والقشيري يحدثنا عن اثني عشر مقاماً ، فإذا كانت المقامات عند هؤلاء متقاربة ، فإنها بالقطع متباعدة بين ما ذكره التِرمذي وعبدالوهاب الشعراني ، فالأول يجعلها أربع مقامات ، والثاني يجعلها تزيد على أربعين ألفاً (6) .

ويرجع اختلاف الصوفية في تحديد المقامات إلى أمور ، منها أن الواحد منهم يتحدث عما عاينه هو من مقامات الطريق ، ومنها أن بعضهم يجمل والبعض يفصّل في تلك الدرجات . وأخيراً فهناك من لا يفرق بين الأحوال والمقامات ، فيذكرهما معاً تحت باب المقامات ، على اعتبار أن الحال « كما يقول السهر وردي ، صاحب العوارف قد ينقلب فيصير مقاماً » (7) .

أما الأحوال ، فهي تلك اللمعات النورانية التي تشرف على قلب السالك حيناً ، ثم لا تلبث أن تزول مسرعة ، فيأتي الحال بعد الحال كتجليات متواترة لا تهدأ ولا تفنأ ، تنتقل بالسالك من معاينة إلى أخرى ، وليس لصاحب الحال تصرف في أحواله ، وإنما

(1) عبدالمنعم الحنفي ، معجم مصطلحات الصوفية ، دار المسيرة ، بيروت ، 1987م .
(2) سورة الصافات الآية164
(3) سورة الدخان الآية51
(4) سورة الرحمن آية45
(5) سورة الاسراء جزء من الآية79
(6) عبدالوهاب الشعراني ، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ، مكتبة دار المعارف ، بيروت ، 1985م .
(7) مفتاح عبدالله بن مسعودة ، تعرف على مبادئ التصوف « مقام الإحسان » .

الأحوال تتصرف فيه بهجومها عليه دون مقدمات ولا اجتلاب « كما حدث للحلاج في حالة الجذب » ، فهذا حال وليس مقام منه ، ومن هنا نرى في كلام الصوفية تعبير « طوارق الأحوال » وهي عند الصوفية واحد من المعاني الثلاثة الآتية :

الحال بمعنى ما يتجلى على قلوب السالكين من أنوار الطريق ومن ذلك قول الجنيد : الحال نازلة تنزل بالقلب فلا تدوم .

الحال بمعنى ما يثمر المقام من سلوك وأخلاق وأعمال ظاهرة وباطنة ، ومن هنا قال الغزالي : لكل مقام علم وحال وفعل .

الأحوال بمعنى المراتب الروحية الممتدة بين المقام ونهايته ، فهي درجات فرعية بين الدرجات الأصلية (1) .

كما أن التصوف الصحيح الذي يقره الإسلام يقوم على دعائم رئيسة وأسس قويمة ونصوص شرعية وأهمها :

الذكر الدائم ، ليكون المسلم رطب اللسان بذكر الله تعالى في جميع الأوقات والحالات ، ويكون في صلة دائمة بالله ـ عز وجل ـ ومراقباً لجلال الله تعالى ولعظمته .

التربية الذاتية ، ذات الأثر السلوكي ، وذلك بتزكية النفس وتربيتها وأخذها نحو الفضيلة ، وما يرضي الله تعالى ، وأبعادها عن كل ما يشينها أو يسيء إليها لقوله تعالى : ﴿ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ من زكَّاهَا وَقَدْ خَابَ من دَسَّاهَا﴾ (2) .

والجهاد في سبيل الله تعالى بالرباط والمرابطة ، للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبليغ الدعوة الإسلامية (3) .

وأوضح باب اشتغل عليه الصوفية وأبلج طريق عملوا في سبيل الوصول منه إلى الله هو باب التقوى الذي من ولجه كان من جملة أحباب الله ، ولذلك وردت إشارات كثيرة لجائزة المتقي في القرآن الكريم . فالتقوى مشتقة من الوقاية ، وهي حفظ الشيء مما يؤديه ولغيره ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن

(1) يوسف محمد طه زيدان ، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر ، دار الجيل ، بيروت . 1991م .
(2) الشمس : 7 ـ 10
(3) يوسف محمد طه زيدان ، عبدالقادر الجيلاني باز الله الأشهب ، دار الجيل ، بيروت . 1991م .

﴿تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (1) ، أي إلا أن تتقوا ما تخافون من جهنم أو تتقوا شرهم .

قال الإمام علي ـ رضى الله عنه ـ : « التقوى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل» . وقال أبوبكر الكلاباذي : « التقوى مشاهدة الأحوال على قدر الأفراد معناه أن تبقي ما سوى الله سكونا إليه» وهي قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (2) . وقال سلطان العلماء العز بن عبدالسلام : « التقوى : فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، وهي وصية الله في الأولين والآخرين» ، وفي باب التقوى يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (3) ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (4) . وقال أحد العارفين اتقوا ترتقوا ، إذ باب التقوى هو الولوج ، أي الارتقاء في علم الحقيقة .

التصوف حالة تربوية

التربية في التصوف هي تربية النفس وتهذيبها بالمجاهدات ، وتربية المريدين على التوبة والمجاهدة والزهد والمحبة والخشية والورع وقطع الهوى ، وكذلك الاقتداء برسول الله ﷺ في تربية المريدين من الصحابة ، وهو أن يلتزم الصوفي تجاه مريده في معاملته بنهج الحبيب المصطفى ﷺ تجاه أصحابه . فيجب أن ينمي الصوفي شخصية تلميذه لا أن يحطمها ، والنبي ﷺ كان ينمي شخصية أصحابه فكان يثني عليهم بما هم أهل له ، وما من صحابي كريم إلا حظي من رسول الله ﷺ بمدح واقعي صريح، فالمريد لا شيء والشيخ كل شيء هذا لم يفعله النبي ﷺ .

لمحة عن التبشير المسيحي في القارة

قبل الحديث عن مقاومة التغلغل المسيحي ، لا بد من إعطاء لمحة عن بداية هذا التغلغل في القارة ، لقد بدأت حركة التبشير المسيحي في القارة مع بداية الاستعمار الأوروبي لها ، وحركة الكشوف الجغرافية بها ، فعندما وصل « بدرونافاروو » إلى الحبشة عام **1494**م اقترح إنشاء تحالف بين الحبشة والبرتغال ، وقد اشترك البرتغاليون فعلاً في هذه المعركة الصليبية ، حين دخلوا طرفاً في الصراع الدائر بين أحمد القرين

(1) سورة آل عمران الآية28 .
(2) سورة التغابن الآية16 .
(3) البقرة: من الآية282 .
(4) الطلاق: من الآية3 ـ 4 .

وبين الأحباش ، حيث انضموا إلى هؤلاء الآخرين من باب التحالف المسيحي بين القوى الأوروبية والأحباش المسيحيين ، وهزم أحمد في هذه المعركة [1] .

ثم اطرد تقدم القوى المسيحية في الوقت الذي بدأ فيه العثمانيون الذين تزعموا حركة الدفاع عن الإسلام يمضون حثيثاً نحو الضعف ، وكان لذلك مرده السلبي أمام تنامي القوى المسيحية ، حيث وقعت القارة الأفريقية فريسة سهلة في أيدي القوى الغربية الأوروبية [2] .

بداية حركة التبشير المسيحي في القارة

وقد بدأ انتشار المسيحية في ظل الاستعمار الأوروبي ، فبعد أن أتم البرتغاليون استكشاف سواحل أفريقية ومراكز التبشير في ساحل الذهب ومصب نهر الكنغو في عام **1491**م اعتنق ملك الكنغو الدين المسيحي [3] . وفي سنة **1610**م أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية بمستعمرة أنجولا ، ومنهم لم ينجحوا في نشر المسيحية داخل البلاد . وامتد نشاط البرتغاليين إلى الساحل الشرقي لأفريقية ، فقد اعتنق الملك مونوتابا المسيحية في **1561**م واستقر الأباء اليسوعيون والدومينيكان في حوض زمبيزي ، وفي عام **1630**م اعتنق زعيم همبسة المسيحية ، ولكن لم تثمر هذه الجهود الثمار المرجوة أيضاً [4] .

ثم دخل الإسبان ميدان التبشير ، وأرسلوا عدة بعثات تبشيرية خصوصاً في مملكة داهومي ، وقام الفرنسيون بجهود مماثلة ، إلا أن الحروب في القارة الأوروبية قضت على كل هذه المحاولات ، ولم تبق إلا نواة صغيرة من الكاثوليك في مدينة سانت لويس ، وأدلى البروتستانت بدلوهم ففي سنة **1665**م نزل إلى مستعمرة الرأس أول قسيس بروتستانتي .

ثم بدأ النشاط المسيحي يسترد قوته في القرن التاسع عشر ، ويسير سيراً مطرداً ، فعاودت المسيحية انتشارها في شرق أفريقية بعد أن سيطر الإنجليز على زنجبار في

---

(1) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ، ط 1 ، دار الثقافة للنشر والتوزيع الفجالة . القاهرة . 2004 . ص 31 .
(2) نفسه ص 31 .
(3) نفسه ص 31 .
(4) نفسه ص 32 .

سنة **1840**م ، واستطاع أحد المبشرين أن يستقر في ممسبة ، ويترجم الكتاب المقدس إلى اللغة السواحلية (1) .

وفي عام **1860** م أسست بعثة كاثوليكية للتبشير في مدينة الساحل المواجه لجزيرة زنجبار ، وبدأت المسيحية تنفذ إلى الداخل بعد اكتشاف منطقة البحيرات العظمى ، فقد استقر المبشرون في تنجانيقا وكينيا ، وتطرقوا إلى أوغندا عام **1874**م وامتد نشاط التبشير المسيحي إلى غرب أفريقية في نفس الوقت تقريباً **1815**م ، وعقب تحريم تجارة الرقيق نزلت بعوث تبشيرية بروتستانتية في كل من ليبيريا وسيراليون ، ونزلت البعثة السويسرية إلى ساحل الذهب ، وتمكنت من نشر المسيحية بين قبائل الفانتي .

لذلك لنرى أن أكثر الدول المسيحية انتشرت في أفريقية من الكاثوليكية والبروتستانتية (2) ، وأهم العوامل التي ساعدت على انتشار المسيحية في القارة في القرن التاسع عشر تغير نظرة المبشرين إلى العادات الوثنية ، فقد كان هؤلاء ينظرون إلى هذه الديانات نظرة احتقار غير أن المبشرين بدأوا يستعينون بعلم الأجناس ويفرضون على أعضاء البعوث التبشيرية قبل أن يقصدوا تلك الجهات إتباع خطة مرسومة تقضي بدراسة البيئات دراسة شاملة وفهم نظمها الإجتماعية (3) .

ومن الوسائل التي اتبعتها الكنائس الأوروبية في عملية التنصير في أفريقيا تعيين قساوسة من الأفريقيين حتى يدرك الزنوج أن الكنيسة ليست حكراً للجنس الأبيض (4) .

كما بدأ المبشرون يتوسلون بوسيلتين بالغتي الخطورة : أولاهما الخدمة الطبية بإنشاء المستشفيات ، حيث أنشئت مئات المشافي والعيادات ، فعملت على تنمية العلاقات بين المبشرين وأهل البلاد ، وللأسف أن هذا الأسلوب من الإغراء لا زال قائماً إلى يومنا هذا وبطرق شتى .

ثاني هذه الوسائل هي إنشاء المدارس المسيحية ، فقد أنشأ المبشرون في أفريقيا الزنجية المدارس المسيحية قبل أن تقوم بذلك الحكومات الاستعمارية نفسها ، بل

---

(1) نفسه ص 32 .

(2) عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية ص 32 .

(3) عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية ص 36 .

(4) عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية ص 51 .

اضطرت بعض الحكومات أن تعهد للمبشرين بمهمة التعليم ، وقد التحق بهذه المدارس مئات الألوف ، بل أصبح نحو من **85٪** من المدارس الأولية في المناطق غير الإسلامية في يد المؤسسات التبشيرية ، وقطع التعليم الغربي شوطاً كبيراً خصوصاً في نيجيريا وساحل الذهب ، حيث تشجع الحكومات البريطانية هذا التعليم باللغات المحلية وقد قامت بريطانيا بنشاط ملحوظ في ساحل الذهب ، حيث بلغ عدد الأطفال المسجلين في التعليم الابتدائي عام **1950**م نحو **212** ألف ، وامتد هذا النشاط إلى مناطق النفوذ البريطاني في شرق أفريقية في كينيا وتنجامينا وزنجبار (1) ، وأنشئت جامعة ماكيريري في أوغندة وفتحت أبوابها أمام جميع الأجناس منذ عام **1953**م (2) . ولم يغفل المبشرون الفرنسيون وكذلك حكومتهم الفرنسية عن أمر التعليم في الجهات التي تقع في نفوذها .

بقي لنا أن نتساءل هل نجحت هذه البعثات التبشيرية في أداء رسالتها على الوجه الأكمل ؟ ربما من حيث أهدافها التبشيرية والتدميرية ، نعم ، وفي هذا الصدد يعرض الأستاذ لورنز تيرنر لنتائج التعليم التبشيري الغربي في أفريقيا معدداً أدواءه ومساوئه؛ نذكر أن هذه الحركة التعليمية التي وضعت لخدمة التبشير والاستعمار تركت أسوأ الأثر في الناحية الاقتصادية ، فقد بدأ الأفريقيون يتركون وظائفهم التقليدية لكسب رزقهم ولم يستطع النظام الجديد أن يعوض عنها شيئاً (3) .

فالتعليم في المناطق البلجيكية والفرنسية يفقد الناس هويتهم الأفريقية ، ويجعلهم فرنسيين أو بلجيكيين ، والتعليم في المناطق الخاضعة للنفوذ البريطاني لا يهيئ فرص التدريب المهني إلا لعدد محدود من أهل البلاد (4) .

أهم الطرق والزوايا الصوفية في أفريقيا ورحلة البعض منها من التصوف إلى السياسة

إن إطلاق تسمية الصوفية على بعض الحركات الإصلاحية يجب أن يكون بحذر،

(1) أحمد الأزمي ، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر للميلاد ، جـ 1 ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب 2000 ص 45 .
(2) أحمد الأزمي ، نفس المصدر ، ص 46 .
(3) نفسه ، ص 65 .
(4) الأزمي ، الطريقة التيجانية ص 66 .

وليس على طول تاريخ هذه الحركات أنها التزمت بمبادئ ومفاهيم التصوف الخالي من التوجه السياسي الدنيوي .

وأهم هذه الحركات ازدهرت في أفريقيا وكان منشأها الأول أنها طريقة صوفية تعبدية تخلو من النوازع الدنيوية أو الإصلاح السياسي ، ولكن نجد هذه الطرق أو الزوايا تتحول بمرور الوقت إلى أحزاب سياسية ومنظمات شبه عسكرية ، تستخدم العنف المسلح للوصول إلى السلطة ، ولذلك يمكن من خلال قراءة تاريخ هذه الطرق أو الزوايا يمكن أن نطلق عليها حركات إصلاحية ، وهو الأقرب إلى التسمية الدقيقة ، وخاصة في نهاية تاريخ هذه الطرق .

ولذلك ظهرت أهم ثلاث طرق صوفية ، اعتنقت السياسة بشكل كامل ، ويمكن فيما بعد تصنيفها بالحركات الإصلاحية أو المنظمات السياسية : الطريقة القادرية والطريقة التيجانية والسنوسية .

القادرية

وتنسب إلى الشيخ محمد محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني المولود في مدينة جيلان **740**هـ / **1077**م وجاء إلى بغداد عام **488**هـ / **1090**م [1] ، ودرس مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، لكنه رفض الانتظام في المدرسة النظامية التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد الغزالي بعد وفاة أخيه أبي حامد الغزالي ، ويقال أنه لم يعتنق أي فكر صوفي حتى حضر إلى مدرسة أبي الخير أحمد الدباسي المتوفى سنة (**523**هـ / **1131**م) [2] وقضى عبد القادر نحو خمس وعشرين سنة متجولاً في صحاري العراق ، وعندما جاوز الخمسين سنة صار من أشهر علماء بغداد على الطريقة الحنبلية ، وكان يلبس رداء العلماء ولبس المتصوفة ، ثم بنى لنفسه مدرسة عام (**528**هـ / **1135**م) [3] واشتهر عبد القادر بورعه وتقواه .

وكان أول دخول لهذه الطريقة إلى بلاد المغرب ومن ثم إلى أفريقيا بلاد ما وراء الصحراء ، كان على يدي العالم المشهور أبي مدين الغوث **1126** ـ **1198**م الذي قابل مؤسس الطريقة في بغداد بعد أداء كل منهما فريضة الحج ، حيث صار

(1) نفسه ، ص 70 .
(2) نفسه ، ص 72 .
(3) عبد الله ، إبراهيم ، الطرق الصوفية ص 52 ، انظر الأزمي ، الطريقة التيجانية ص ص 65 .

أبو مدين من أشهر المتصوفين في القرن الثاني عشر [1] ، وانتشرت الطريقة القادرية في مراكش ، وسيطرت على الحياة الدينية الإجتماعية طوال القرون التالية مما مهد لقيام طرق صوفية جديدة ، مثل التيجانية التي أسسها أحمد التيجاني في أواخر القرن الثامن عشر [2] .

وفي تطور لاحق أصبح سيدي علي الكنتي أهم أقطاب الطريقة القادرية ، عندما انتقلت قبائل الكونتا [3] في القرن الخامس عشر إلى واحة توات ، وفي عام **1550**م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط السودان وغربه ، حيث انتقلت أفكار وأراء الشيخ أحمد الزروق إلى الشيخ سيدي مختار الكبير الذي نقل تعاليم الصوفية القادرية إلى جماعات الفولاني في بلاد الهوسا [4] ، وهو ما يعد التحول السياسي لهذه الطريقة .

وظهر سيدي مختار الكنتي [5] **1793 ـ 1811**م الذي نجح بسبب ما تمتع به من صفات حميدة وثقافة عالية في أن يصبح قطب الطريقة القادرية في منطقة الصحراء من أقليم « ولاتا » في المغرب إلى « أدرار في الجنوب الغربي للجزائر » ، وقد ألف مختار الكنتي أكثر من **300** رسالة عن الإسلام ودوره في العالم وصارت تعاليمه التي حملها تلاميذه العلامات التي ساعدت على انتشار الإسلام بين الشعوب الزنجية في السودان الغربي ، بل صار دين الأغلبية إذ اعتنقه الملوك الوثنيون واستمر الإسلام في الانتشار على طول طرق التجارة ، كما وصلت تعاليم القادرية إلى إمبراطورية الكانم عن طريق شمال أفريقيا ، ويقال أن شاعراً معروفاً من كانم يدعى إبراهيم بن يعقوب الكانمي زار بلاط

---

(1) عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية ، ص 52 .

(2) عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية ص 53 وانظر كذلك الأزمي ، الطريقة التيجانية ص 87 .

(3) الكونتا إحدى القبائل العربية التي كان لها نفوذ في جنوب الصحراء وفي الساحل وقد هاجرت هذه الجماعات من منطقة توات ، وفي القرن الخامس عشر وصلت إلى حدود تمبكت ثم تطورت من نواة عربية إلى قبيلة مغربية دينية كانت الأساس في نشر الطريقة القادرية في غرب أفريقيا ، وصارت هذه الطريقة الوسيط بين القبائل المتصارعة من الطوارق والفولي والزنوج . انظر عبد الله عبد الرزاق الطرق الصوفية ص 32

(4) الأزمي ، الطريقة التيجانية ، ص 75 .

(5) وتوجد اليوم زاوية الطريقة الكنتية التي تستمد جذورها من القادرية بولاية إدرار في جنوب الجزائر « الباحث» أثناء زيارة تلك المنطقة 2003 ف .

يعقوب المنصور الموحدي في القرن الثاني عشر ، ونقل إليه بعض الأفكار الصوفية التي كانت منتشرة في المغرب [1] .

والحقيقة أن الطريقة القادرية عرفت المجال الأكبر لانتشارها في غرب أفريقيا بعد أن تزعم الشيخ عثمان بن فودي عملية الإحياء القادري بالاعتماد على جماعات «التورودوب» وقد نشأت جماعات «التورودوب» من مجموعة الشعوب التي وجدت في الدين الإسلامي مصدراً لشخصيتها الثقافية ، والمعنى يرتبط بالجماعة التي تجاهد في سبيل الله أو المجاهدين ومن ثم جاء ظهور هذه الجماعة مع انتشار الإسلام في منطقة فوتاتورو ، وقد مارس هؤلاء مهنة تدريس العلوم الإنسانية ، ولكنهم أسسوا مجتمعاً مفتوحاً ، وأصبح إسلام التورودوب يمثل هزة عنيفة في المجتمعات الأفريقية حيث قاموا بشن حملات الجهاد ضد القبائل الوثنية .

وحاولت جماعات «التورودوب» الانفراد بالسلطة والسيطرة على الجماعات غير الإسلامية في المناطق المجاورة ، وفي عام **1725**م حاولت جماعات عسكرية منهم السيطرة على الأوضاع السياسية في فوتاتور ، وكان الشيخ عثمان بن فودي هو أنسب القواد الذين تولوا هذه الثورة الإسلامية ضد حكام الهوسا [2] .

يتبين لنا من خلال هذا الانتقال التدريجي للطريقة القادرية من المنهج الصوفي الذي سار عليه مؤسسها الشيخ عبد القادر ، إلى تطورها إلى حركة عسكرية دينية إصلاحية تستخدم العنف وتقاتل الآخرين من أجل الوصول إلى الحكم . أين يقف الصوفي والسياسي في هذه الطريقة التي تبدل منهجها على يدي الأتباع وليس المؤسسين ، والإتباع أو أتباع الطريقة في أفريقيا ألغوا مجتمعاً في حاجة إلى إصلاح سياسي قبل التربية الصوفية التي تكون بيئتها مجتمعا مستقرا ينعم بالهدوء ، ولذلك هل نطلق على الطريقة القادرية ، من خلال تتبع تاريخها الديني والسياسي ، أنها طريقة صوفية خالصة أو أن هذه الطريقة دخلت إلى مرحلة جديدة وفق الرؤية الإصلاحية الجديدة للطرق في أفريقيا تخلت عن منهاجها الصوفي وتحولت إلى جمعيات سرية أو أحزاب سياسية تقاتل من أجل الوصول للحكم تحت ذريعة مقاتلة الوثنيين والمجاهدة فيهم وإدخالهم إلى الإسلام بالقوة ؟ وهذا يتناقض مع المفهوم الحقيقي

(1) نفسه ص 75 .
(2) عبد الله عبد الرزاق الطرق الصوفية ، ص 53 ، 54 .

للدين وفق النص القرآني ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [1] .

ولنأخذ نموذجا آخر من الطرق الصوفية التي تحولت إلى حركة إصلاحية سياسية ، ونعني بذلك التيجانية ، وهي تنسب للشيخ أبي العباس بن أحمد بن محمد المختار التيجاني الذي ولد في قرية عين ماضي في جنوب الجزائر عام (**1150**هـ / **1737**م) [2] ، ويقول نفس المصدر أن جده الرابع سيدي محمد بن سالم انتقل من قبيلة عبدة أحواز مدينة « اسفي » مع أسرته المغربية إلى (توجين) أو (تجانة) وصار أولاده وأحفاده يعرفون بالتيجانيين ، وبذلك يتضح أن الشيخ سيدي أحمد التيجاني انتسب لأخواله في هذا اللقب ، إذ أن جده تزوج من قبيلة توجين [3] المشار إليها .

يقول كاتب سيرة الشيخ أحمد التيجاني في كتاب « الطريقة التيجانية » : إن أحمد التيجاني ، كلما كان يعرض عليه أخذ الطريقة الصوفية يرفض أخذها من هؤلاء الرجال، أو أن يلتزم بأورادهم ، على الرغم من إلحاحه في طلب مقابلتهم وتجشمه المشاق في السفر إليهم ، من ذلك ما كان في رحلة الحج عام (**1187**هـ / **1773**م) [4] ، فلما فرغ من أداء الشعائر بمكة ارتحل إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ يقول علي حرازم [5] « وبعد أن حقق هذه الرغبة بذل عدة مساع لملاقاة قطب المدينة المنورة سيدي محمد بن عبد الكريم السمان إلى أن التقى به ، وخلال هذا اللقاء طلب من سيدي أحمد التيجاني أن يدخل الخلوة عنده لمدة ثلاثة أيام ، فاعتذر عن عدم تلبية طلبه بسبب لا يعلمه إلا هو ، وعلى الرغم من ذلك أذن الشيخ السمان لضيفه في جميع الأسماء ، وأخبره بأنه هو القطب الجامع ، وبشره بنيل المرام والحصول على الإذن المطلق العام » هذه الرحلات العلمية أو الالتقاء ببعض الأولياء تعد مرحلة تأسيس لفكر الطريقة التيجانية ، أو الإرهاصات التي تعيشها هذه الطريقة التي ولدت فيما بعد في قصر « أبي سمعون » عام **1196**هـ / **1781**م .

---

(1) سورة البقرة ، من الآية 254

(2) نفسه ، ص 54 .

(3) نفسه ، ص 55 .

(4) نفسه ، ص 58 .

(5) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، مكتبة النهضة المصرية ط 3 ، 1984 ص 45 .

إذاً في هذه الخلوة لقنه الرسول الكريم ﷺ الطريقة الـتي سيـسير عليهـا التيجـاني وأتباعه فيما بعد ، وتنص هذه الواقعة من أحد مديرية علي حرازم براده حيث يقول « في غمرة هذه الأجواء العطرة والتردد على العتاب الشريفة حـصل لـسيدي أحمـد التيجـاني لقاء بأبي سمعون من السنة الأولى التي قام بها بعد رحيله من تلمسا في عام **1196**م فأذن له الرسول ﷺ يقظة لا مناماً في تلقين الخلق على العموم والإطلاق وعين له الورد الذي يلقنه» [1] لو أمعنا النظر في هذا النص ، والنص الذي سبقه لأدركنا الشطط الذي وقع فيه بعض المريدين للطريقة التيجانية ، وأدركنا أن لغة هذا الخطاب يمكن أن يـتم تـسويفها بكل تفصيلاتها في مجتمع بدوي غالبيته لا يدرك القراءة ولا الكتابة ، فما بالك بالتعـاليم الحقيقية للدين الإسلامي ، إضـافة إلى وجـود مجتمـع وثـني يتوجـه لـه هـذا الخطـاب ويختصر طريقة الإقناع ، ونحمد الله كثيراً أن أحمد التيجاني لم يقل أنا رسول الله ونزل علي الوحي في أبي سمعون ، ولا شك كان هذا من ألطـاف العنايـة الإلهيـة بهـذا الـدين وبالمسلمين ، وإلا لتم تـصديق هـذه النبـوة في مجتمـع لا يـدرك مـن الـدين إلا طاعـة الأشياخ والامتثال لهم .

إن أحمد التيجاني الذي رفض كل العروض بشأن أخذ الطريقة على أحد الشيوخ أخذ الطريقة الخلواتية من الشيخ محمد الكردي داراً وقراراً ، العراقي أصلاً ومنشأ [2] .

والطريقة الخلواتية كانت قد أسست لها أول زاوية في مـصر علـى يـدي إبـراهيم حلوشني ذي الأصل التركي ، وعلى الرغم من أن أصلها غامض إلا أنهـا تجـد أصـولها في الفارسية والتركية التي خلفها المتصوفة بعد إبراهيم الزاهد ومحمد نور الخلواتي [3] ، وعلى الرغم من أن أحمد التيجاني أسست زاويته الأولى في عين ماضـي في الجزائـر ، إلا أنه غادرها نهائياً إلى فاس التي وصلها في سبتمبر **1789**م وظل بها وأسس لـه زاويـة فيها بمساعدة المولى سليمان حاكم فاس الذي احتفى بمقدمه ورتـب لـه مـا يكفيـه إلى حين وفاته **1815**م .

وعلى الرغم من أن أحمد التيجاني كان مستقره النهـائي في فـاس بـالمغرب إلى حين وفاته حيث أسس بها زاويته ، ووفد عليه طلبة العلم وكثـر مريـدوه ، إلا أن زاويتـه

(1) عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية ، ص 70 .
(2) نفسه ، ص 70 .
(3) نفسه ، ص 70 .

بعين ماضي بالجزائر يبدو أنها هي التي أخذت زمام قيادة الطريقة التيجانية مما أحدث شقاقاً وتنافراً بين الزاويتين في عين ماضي ، والثانية في فاس . حيث تشير المصادر إلى الصراع الذي احتدم بين الزوايا التيجانية الثلاث حول زعامة الطريقة ، وهي زاوية تماسين في شرق الجزائر ، وزاوية عين ماضي في غربها وزاوية أحمد التيجاني في فاس بالمغرب الأقصى (1) .

إذ تفند بعض المصادر التيجانية ما ورد في المصادر الفرنسية حول رحلات أحمد التيجاني إلى السودان الغربي وإلى تونس لتأسيس الزوايا وتعيين المقدمين لها ، وتعد ذلك مما : (يتعلق بالحرب الباردة المعلنة بين تيجاني تماسين وعين ماضي من جهة وتيجاني فاس من جهة ثانية ، فالأوائل يريدون إبراز الأهمية التي أولاها سيدي أحمد التيجاني للطريقة بمسقط رأسه قبل انتقاله إلى فاس باعتبار أن إشعاعها في اعتقادهم كان قد اخترق الآفاق قبل هجرته للعاصمة الإدريسية ، في حين يرى الآخرون أن الجهود الكبرى لنشر تعاليم الطريقة بدأت انطلاقاً من فاس . . . .) (2) .

كما أسهم في الخلاف بين تلك الزوايا عدم التزام خلفائه من بعده بوصيته بأن تبقى زعامة الطريقة في بنيه من بعده أو من عائلة علي عيسى التماسيني (**1844**م) الذي عينه التيجاني ليكون خليفة له بعد وفاته ، ولكن هذا التقليد لم يتبع وحدث خلاف بين خليفة الشيخين (3) .

وإمعاناً في تأكيد سيادة زاوية عين ماضي التي كان يتواجد بها أبناء أحمد التيجاني حاولوا نقل رفاة والدهم من فاس إلى عين ماضي ، ولكن رؤساء الزوايا تدخلوا لإبقاء الجثة في مكانها ، ولكن رغم ذلك انتقلت زعامة الطريقة إلى الجزائر وظهرت لها فروع جديدة في السودان الغربي (4) . الأمر الذي مهد لقيام كيان سياسي في ظل التيجانية في السودان الغربي ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود الحاج عمر الفوتي

(1) نفسه ، ص 71 .

(2) نفسه ، ص 72 .

(3) إسماعيل العربي ، راجع حسن إبراهيم انتشار الإسلام ، مرجع سابق ص 47 ، وكذلك عبد الله عبد الرزاق ، الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ، مكتبة مد بولي ب ت ص 87 .

(4) طه عبد الرحمن ، بحث : «الخصائص العامة للتصوف في المغرب العربي» ، أعمال ملتقى التصوف الإسلامي في الفترة من 16 ـ 18 الفاتح 1995 م طرابلس ، ص 167 .

التكروري (**1795** ـ **1864**م) [1] في مقاومة الاستعمار الفرنسي والوثنية في هذه المنطقة، وقد حول الشيخ عمر الفوتي الطريقة التيجانية من الصفة الصوفية الخالصة إلى دعوة إصلاحية بعد أن ازداد عدد أتباعه وبدأ في شراء الأسلحة والمعدات الحربية ، وأخذ يطور جيشه ويدربه على أحدث وسائل القتال ، وجاء هجوم جماعات البمبارا نقطة تحول في طريقته . حيث أعلن أن هجوم الكفار الوثنيين عليه حتم ضرورة القيام بواجب الجهاد في سبتمبر **1852**م وأعلن أن الله كلفه بالقيام بواجب الجهاد ضد الوثنيين ، كما اصطدم بالقوات الفرنسية التي هزمته في منطقة مادينا **1858**م ، الأمر الذي جعله يغير مجرى حياته وينتقل إلى النيجر الأوسط ومناطق البمبارا الوثنية حيث بلغ أوج عظمته ووضع على كل منطقة تابعة له أميراً [2] .

بعد هذه الإطلالة التاريخية على تحول الطريقة التيجانية والدور الذي قامت به من التصوف إلى ممارسة العمل السياسي والعسكري ، لتتحول بذلك إلى جمعية إصلاحية ، هدفها بناء إمبراطورية إسلامية على الطريقة التيجانية ، يمكن الإشارة إلى أن بعض المصادر تشير إلى عدم مساهمة التيجانية في المجهود الحربي ضد المستعمر الفرنسي ، إذ في سنة **1836**م أراد المير عبد القادر الجزائري الاستعانة بالتيجانية في طرد الفرنسيين الذين استولوا على الجزائر عام **1830**م ولكن التيجانية آثروا أن يعيشوا عيشة وادعة ولم ينخرطوا في سلك جيشه . . فقام الأمير عبد القادر بعدة حملات على مركز التيجانية في «عين ماضي» التي قاومت هذه الحملات وأبدت ضروباً من الشجاعة في مقاومة المغيرين [3] !! .

لا نستطيع الإلمام بكل الطرق الصوفية التي انتشرت في أفريقيا وكان لبعضها ادوار سياسية ، وتطلعات لقيام دول تاسست على فكرتها الإصلاحية ، ولذلك يمكن أن نلاحظ أن هذه الطرق في بدء أمرها ، ربما كانت ذات صبغة صوفية خالصة ، ولكن بمرور الوقت وبمجيء الخلفاء بعد المؤسسين ، تطورت المصالح والمطامع ، فيتولى هؤلاء المقدمون الجدد الإفصاح عن أحلامهم السياسية ، وتتحول هذه الطرق إلى حركة إصلاحية سياسية ، تمارس مختلف وسائل الصراع من أجل تحقيق الأهداف السياسية .

(1) نفسه ، ص 169 .
(2) طه ، نفس المرجع ص 170 .
(3) طه ، نفس المرجع ص 168 .

وعلى الرغم من ذلك استمرت بعض الطرق في ممارسة رسالتها الصوفية التربوية الخاصة ، دون الانغماس في الصراعات السياسية أو التطلع إلى السلطة ، ويمكن الاشارة إلى الطريقة العروسية ، وشيخها عبد الواحد الدوكالي التي تسمي الطريقة أحيانا باسمه الدوكاليه ، تلميذه سيدي عبد السلام الأسمر ، وهي التي تنسب إلى سيدي أحمد بن عروس ، دفين تونس .

نبذة عن الشيخ عبد الواحد الدوكالي وزاويته في بلدة مسلاتة

ينسب الشيخ عبد الواحد الدوكالي إلى إقليم دكالة بالمغرب الأقصى ، ولم يعرف تحديداً تاريخ مولده إلا أن بعض معاصريه يقدمون لنا تاريخاً تقريبياً عن ولادته حيث يرى الشيخ أحمد زروق أنه ولد سنة **864** هـ بينما يرى الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري أنه ولد عام **880**هـ وتوفي في عام **981** هـ .

ويؤكد الشيخ عبد السلام الأسمر أنه تلقي الطريقة العروسية علي يدى أستاذه الشيخ عبد الواحد الذي عرف بالدوكالى المغربي القرشي الذي مسكنه مسلاتة ، ودفن بقرية زعفران بها ، ولكن المؤسس الأول لزاوية الدوكالي هو الشيخ عبدالله الذي يسبق الشيخ الدوكالى بزمن طويل . وقد كان الشيخ عبد السلام الأسمر هو التلميذ المخلص لاستاذه حيث يقول في وصيته الكبرى أنه شيخه المغربي القرشي نسباً المسلاتي داراً المالكي مذهباً الأشعري اعتقاداً صاحب الطريقة العروسية . . . . كان من أكثر الرجال علماً وأدباً واتباعاً لأصحاب الرسول ﷺ ، وكان أوحد زمانه في الورع ، وعلم النحو والفقه والحديث والتصوف وكان يقرئ الناس كل يوم سبع حصص إلى ماقبل صلاة العشاء الآخرة .

وسيطر الشيخ عبدالسلام الأسمر في ذكر محاسن أستاذه الشيخ الدوكالي حيث قال إن مائة من فقهاء المغرب قد جاءوا إليه وامتحنوه وجادلوه فأجابهم بكل علم وكانت فتواه تعجب علماء طرابلس وتونس أكثر الاعجاب ، وشهد بذلك علماء مصر حيث كان يفتي في المذاهب الأربعة .

وعلى مدى خمسة قرون لعبت زاوية الدوكالي بمسلاتة دوراً كبيراً في الحياة الثقافية ، حيث تعد أحد مراكز الإشعاع العلمي والفكري في ليبيا منذ نشأتها لأن صاحبها رجل علم وجد ومثابرة .

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لماذا استقر الدوكالي بقرية زعفران بمسلاتة؟ يرجع السبب في اختياره لهذه المنطقة لسببين :

اولاً :

إنه اختار هذه المنطقة لتكون رافداً علمياً لجده عبدالله الدوكالي مؤسس الزاوية ، وحتى يكمل رسالته على الوجه الأكمل .

ثانياً :

أظهر أهل مسلاتة ترحاباً بهذا العالم الجليل ، ورغبة منهم في المساهمة في النهضة الفكرية العربية الإسلامية .

هذا نموذج للطريقة الصوفية التي بقيت علي منهجها الصوفي الخالص الذي رسم لها منذ البداية دون الدخول في معترك السياسة ، بل كانت رسالة علمية تربوية تؤدي رسالة تنويرية تتسق وأهداف التصوف ورسالته كما أشرنا في مقدمة هذا البحث .

يتبين من خلال إلقاء نظرة عامة على الطرق والزوايا في أفريقيا وتحويلها إلى مدارس تعليمية أنها أسهمت إلى حد كبير في دخول عدد من القبائل الوثنية في الإسلام ، ولكن نتيجة لتأثر هذه الطريقة بالحركة الوهابية في الحجاز ، تحولت إلى حركة سياسية لها أهداف وتطلعات للسلطة .

كما نلاحظ أن هذه الطرق التي امتد نفوذها الديني إلى ما وراء الصحراء ، أي بلاد السودان بمختلف أقاليمها هي التي تبنت المنهج الإصلاحي السياسي ، حيث دخلت في بدء أمرها في صراع مع القبائل الوثنية اضطراها إلى حمل السلاح ، ومن ثم تحولت إلى أنظمة سياسية في هذه الأقاليم ، كما اتخذت من مقاومة المستعمر وسيلة للتحول إلى أحزاب سياسية .

مدلول الجهاد في الطرق الصوفية

لقد اشرنا في مقدمة هذا البحث إلى مضامين التصوف وما يعنيه الجهاد بالنسبة للصوفي ، ويمكننا أن نستطرد قليلاً في هذه المفهوم من خلال الرؤية التي ساقها العلامة طه عبد الرحمن من خلال تحديد ما يعنيه الجهاد في الطرق الصوفية في بلاد المغرب ، حيث أشار إلى أن « مدلول الجهاد الصوفي لا تعلق له أصلا بطلب الرئاسة الدينوية ، لأن هذا يناقض مقاصد التربية الروحية ، كما لا علاقة له بالتشدد العقدي لأن هذا يناقض

رسائل التربية ، وإنما تعلقه بمجاهدة النفس وحدها ببذلها رخيصة في سبيل الدفاع عن الإسلام ، كما استرخصت في سبيل الخروج عما سوى الله» .

على هذا فإن الجهاد بالمعنى الصوفي ليس عملاً تسييسيا ولا سلوكاً آيديولوجياً وإنما هو عمل روحي أخلاقي في الأصل .

وإننا من خلال إعادة قراءة هذه الرؤية نلاحظ أن هذا لاينطبق على معظم الطرق التي ازدهر نشاطها في القارة مثل القادرية والتيجانية والسنوسية والميرغنية ، إذ نجدها تحولت في مرحلة من المراحل ، إلى حركات إصلاحية سياسية عسكرية ، مارست العمل السياسي والعنف المسلح من أجل الوصول إلى أهدافها السياسية ، فأين تقف هذه الطرق أو مقدموها فيما بعد من التصوف الحقيقي ؟ .

ويمكن أن نعود إلى طه عبدالرحمن الذي يعطي مفهوماً عاماً للتصوف المغاربي إذ يقول : والصواب أن الدعوة الصوفية كما مارسها الأولون المؤسسون من رجال التصوف المغاربي لاتبتغي بالتجديد الأخلاقي للإنسان بديلاً ، ولاسبيل لتجديد الإنسانية إلا إذا قام الداعية بشرط الإخلاص لله في دعوته ، وقام المدعو بشرط تسليم الإرادة لله ، وقد سمى هذا التجديد الإنساني باسم «الصلاح» وسمَّى اصحابه باسم «الصلحاء» و«الصالحين» كما أطلق عليهم اسم «الافاضل» واسم أهل الفضل والدين ، وعلى هذا فإن دعوة أهل الصلاح ليست نزعة طائفية ولادعاية ، وإنما دعوة إنسانية أخلاقية .

وعلى الجملة فإن التصوف ينأى عن معنى التسييس ويتجه اتجاها أخلاقياً متميزاً يجعل للجهاد ويعد روحياً .

ونخلص إلى القول إن الطرق والزوايا الصوفية وجدت لها رسالة تربوية في المقام الأول ، فالزاوية هي المدرسة التي تعلم مختلف العلوم لمريديها وطلابها ، والطريقة هي المنهاج الذي يجب أن يسلكه المتعلم في تلك الزاوية لترسيخ الطريقة ومنهجها الصوفي من خلال الأخذ بأسبابه من التعليم الديني الصحيح الذي مصدره النص القرآني والسنة العملية والقولية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

كما أن ترك التسبب يعني البطالة والتواكل ، أي يجب أن يجمع أهل الطريقة بين التجرد والتسبب ، والتجرد نوعان : تجرد عن الحظوظ وتجرد عن الأسباب ، إذ أن التصوف وقف سير المريد على ترك الحظوظ ، حتى يتحقق بإفراد الله بالقصد في

الأعمال وامتاز بالتحذير من ترك الأسباب والنهي عنه .

قال سيدنا عمر لرجل وجده طوال الوقت معتكفاً في المسجد فنهره ، وقال له : إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ودعاه للعمل ، وإن في عمله أجراً وبركة طالما هو يذبّ عن نفسه وعياله الفاقة .

وقد دخل أكابر رجال الصوفية في طلب الأسباب واتخذوا من وسائل العيش ما يدفع عنهم الحاجة إلى الخلق ، فمارسوا التدريس والتجارة والزراعة وكرهوا الكسل . ولكن كانوا يحرصون علي عدم التعلق بهذه الأسباب حتى يدركوا أن تسببهم ليس هو الذي يوصلهم إلى تحقيق طلبهم من الرزق ، وإنما موصلهم على الحقيقة هو الرزاق ذو القوة المتين ، فيكونون في ذات الوقت متسببين ومتجردين .